# النحو العربي بين صرامة التقعيد وجمالية التوصيف

**د. بوعــلام طهــراوي***

لقد تأسّس النحو العربي بهدف ضبط ألسنة المتكلمين على لغة عربية سليمة فصيحة ، وكان النحو العربي من أوائل العلوم العربية نشأة وأسرعها نضجا وأكثرها استقطابا لاهتمامات الباحثين والدارسين ، لارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ، فنشأته كانت في رحاب القرآن الكريم وبوحي من قدسيته ووجوب المحافظة عليه ، بصيانته من اللحن الناتج عن فساد الألسنة وانحرافها ومن ثـمّ كثرت فيه التصانيف من كل لون حرصا على خدمة اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، فكانت وعاء استوعب النص القرآني أسلوبا وألفاظا ودلالات . وهذه التصانيف المؤلفة تنوعت بتنوع أغراض مؤلفيها بين التبسيط والتركيز إذا كان الغرض تعليميا موجها للمبتدئين ، ومنها ما هو متوسط الطول ، ومنها المصنّفات المطولة المبسوطة في مجلدات إذا كانت موجهة للعلماء والمتخصصين الذين يبحثون في مسائل الخلاف والجدل وعلل المسائل ، وربط الفروع بالأصول .

وإذا نظرنا من زاوية أخرى إلى التراث النحوي الذي وصلنا على امتداد عصور التأليف في النحو العربي فإنّنا نلمح منهجين اثنين: أولهما : المنهج النحوي التطبيقي الجمالي ، وثانيهما : المنهج النحوي النظري التقعيدي الصارم .

## أولا ـ المنهج النحوي التطبيقي الجمالي :

يتسم بالإبداع والجمالية لأنّ المصنّف يُدلف بنا إلى جماليات اللغة من خلال ما يتناوله من النصوص المتنوعة شعرا ونثرا فيضيء منها معاني دقيقة ودلالات عميقة لا ينتبه لها عادة من يقفون على ظواهر الألفاظ وأصناف العبارات والتراكيب. وهذا المستوى من التحليل النحوي يفرض على المصنف أن يكون على دراية واسعة بالظروف العامة التي أحاطت بإنتاج هذا النص أو ذاك ، وما يرتبط بهذا الأمر من قضايا السياق والمقام ، لما لها من الأثر الكبير في فهم النص وتوجيه إعرابه وفهم تراكيبه .

تقوم الدراسة النحوية في هذا المستوى على تحليل جماليات العناصر

---

* قسم الأدب العربي ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

المؤلفة للتراكيب والجمل، وبيان موضع كل لفظ وعلاقته بغيره، وبيان التفاوت الدلالي والجمالي بين تركيب وآخر، وهذه المهمة الجمالية للدراسة النحوية واللغوية بدأها سيبويه في الكتاب.

كان النحو قبل سيبويه مسائل متفرقة وموضوعات مشتتة وملاحظات يسيرة تسمع في مجالس هنا وهناك، أو مدونة في أوراق يتلقاها العلماء بينهم، إذ تقضي طبيعة الأشياء أن تبدأ في كلّ علم نظرات متناثرة هنا وهناك ثم يتاح له من يصوغ هذه النظرات صياغة علمية تقوم على اتخاذ القواعد وما يطوى فيها من علل وأقيسة. واستمر الحال إلى أن جاء سيبويه ووضع «الكتاب» والذي سلك به طريقا غير الطريق الذي ألفه الناس إذ صار النحو بفضله شابا فتيا وغضّاً طريّا يتّسم بالجدة والشموخ.

يبدو سيبويه من خلال كتابه الشهير أديبا لغويا مبدعا ومحللا متأنيا بارعا مستوعبا لكلام العرب. فكتابه صاغه بلغة خاصة لم تشبهها لغة النحاة من قبل ولا من بعد، إذ لم يكن همه الأول التنقيب عن مكامن الخطأ والصواب أو التنظير للغة معيارية عنوانها (قل ولا تقل)، وإنما كان رائدا في وصف كلام العرب، متتبعا الاحتمالات النحوية؛ إذ كل تركيب وكل وجه إعرابي يحمل معنى، ففي مواضع من كتابه يخبرك أن النصب هو على معنى كذا وكذا، وإن رفعت فهو عربي جيد على معنى كذا.. لقد كان مهموما بأوجه الإعراب لأنها تنطوي على أوجه دلالية كذلك، وليس هذا بدعا من الأمر أتى به سيبويه، بل هو ميراث لغوي تجلّى أوّل ما تجلّى في قراءات القرآن الكريم والتي هي أساسا وجوه نحوية متعددة للنّص القرآني أذن بها النبي ﷺ لإذن الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان 58)،

إذ القراءة سنة لا يجوز فيها إلا اتّباع الرواية.

لقد بلغ النحو أن يكون في كتاب سيبويه فلسفة لغوية تتعمق بنية اللغة من خلال الفحص والتدبر. إنه يعلل للكلام بأسلوب بعيد عن التقعيد الجاف الذي سيطر على النحو من بعده، ولنتأمل هذا النموذج: يقول في: «رأيت زيدا، وعمرا كلمته» «اختير النصب ها هنا لأن الاسم الأول مبنيٌّ على الفعل، فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم إذ كان يُبْنَى على الفعل وليس قبله اسم مبني على الفعل، ليجري الآخِرُ على ما جرى عليه الذي يليه قبله»(1).

(1) سيبويه، الكتاب. تحق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ط3. ج1، ص88.

إنه يسمع العرب تلفظ الجملة السابقة بنصب «عمرو» فيبحث له عن سبب فيرى أنه لمشاكلة لفظ «زيد» الذي وقع مفعولا به، وهو يذكر ذلك بلفظ «اختير» الدال على الإباحة والجواز، بمعنى أنّ هناك وجها آخر أو وجوها تجوز فيه، لكنك ينبغي أن تسير معه لتدرك سبب اختياره النصب؛ إنّ لفظ «زيد» قبله لا يجوز فيه إلا النصب على المفعولية، أما لفظ «عمرو» الذي ورد معطوفا بالواو ففيه مجال رحب لتقديرات عديدة اختار منها سيبويه النصب ليشاكل الكلام بعضه بعضا، وحسّنه أن كان قبله مفعول منصوب، أما العامل في نصب «عمرو» فقد يكون فعلا محذوفا مقدرا بمعنى «وكلمت عمرا» وحذف لدلالة الفعل المتأخر عليه، وذلك تقدير نحاة البصرة الذين رأوا الفعل «كلّمته» قد استوفى مفعوله وهو «الهاء» فلم يجوزوا أن يكون مفعوله عمرا المتقدم، فقدروا له فعلا محذوفا. أو هو منصوب بالفعل بعده كما قدّره نحاة الكوفة.

يلاحظ على طريقة سيبويه في التحليل أنه يأنف من الحجر على إبداع المتكلم وإلزامه بوجه واحد ما دامت هناك سعة ووجوه جائزة وممكنة، بل مسموعة عن العرب، وهو لذلك يعود بعد صفحتين من كلامه السابق فيذكر لك أن هناك وجها آخر تحتمله العربية، قال: «وقد يبتدأ فيحمل على مثل ما يحمل عليه وليس قبله منصوب، وهو عربي جيد، وذلك قولك: لقيت زيدا وعمرٌو كلمته، كأنك قلت: لقيت زيدا وعمرٌو أفضل منه، فهذا لا يكون فيه إلا الرفع لأنك لم تذكر فعلا»[1]. وأنت على هذا تستطيع رفع «عمرو» في العبارة الأولى على أنه مبتدأ والجملة الفعلية بعده في محل رفع خبره.

يستعمل سيبويه كثيرا أمثلة يسيرة من درج الكلام، لعله يريد أن يشعرنا بأن النحو يسير، وأنّ له دخلا في تنظيم كلامنا اليومي، ومع ذلك فإن «الكتاب» مشحون بشواهد من القرآن والشعر وكلام العرب.

## ثانيا ـ المنهج التقعيدي التجريدي:

وهو منهج سلكه من جاء بعد سيبويه، فقد رأى النحاة بعده أن يستخلصوا من الكتاب قواعد محددة أحاطوها بسياج لغوي متين من المصطلحات والقواعد، ونشأت الخلافات بينهم وتأسست مدرسة البصرة التي أرسى الخليل وسيبويه دعائمها وحددا أصول منهجها، وعارضتها مدرسة الكوفة بدوافع مختلفة بعضها علمي موضوعي وبعضها الآخر سياسي مصلحي.

(1) سيبويه: الكتاب، ج1، ص90.

تنوعت مسارات النحو بعد ذلك ، وبدأ يشارك في التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، لكنه ظل بعيدا عن التوغل في الأعماق ، فلم يوجه النحاة بعد سيبويه جهودهم إلى خدمة النصوص العربية الفصيحة من كلام العرب الفصيح شعره ونثره ـ بالإضافة إلى النص القرآني والحديث الشريف ـ مع استثناء بعض الأعمال التي سلكت بالنحو مسالك تطبيقية على النصوص ، ونذكر منها كتب معاني القرآن كالذي أنشأه الفراء بهذا العنوان ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ، أو ما قام به ابن جني من شرح لغوي على ديوان صديقه المتنبي الشاعر ، إلا أنه لم يذهب فيه إلى المدى المنتظر من لغوي في حجم ابن جني.

هذا بالإضافة إلى بعض الأعمال التي تناولت نص الحديث الشريف بالشرح اللغوي والتحليل النحوي ومنها « إتحاف الحثيث بإعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث» للعكبري ، و« شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» لابن مالك. لنصل إلى أفضل الأعمال في هذا السياق « تفسير الكشاف» للزمخشري والذي يُعَدّ عملا نحويا تطبيقيا بامتياز عُني بالجوانب الجمالية للنص القرآني.

إنّ المدونة العربية التي جمعها العلماء عبر العصور المختلفة شعرا ونثرا كان بالإمكان أن تكون مجالا رحبا للتطبيق النحوي واللغوي والجمالي عليها بالشرح والتأويل وكشف مواطن الجمال ومواطن الضعف فيها ليكون الدرس النحوي حيا طريا مرتبطا بكلام الناس المنظوم والمنثور ، ومرتبطا بالحياة العامة للناس يستوعب حاجياتهم في صياغة الألفاظ والتراكيب مما يحتاجونه للتعبير عن الوقائع والأحداث التي تلابس الكيان الاجتماعي للأمم.

إن هذا الطموح لم يتحقق لأن الجهود اللغوية والنحوية اتجهت إلى إعادة قولبة المادة النحوية والتنويع في عرضها بطرق مختلفة ، كصياغة المادة النحوية في قوالب من النظم بهدف تيسير حفظ أبواب النحو أملا في استقامة الألسنة على كلام عربي مستقيم ، وتبارى النحاة في التعليق عليها وتذييلها بالشروح وشروح الشروح. ونذكر هنا شروح ألفية ابن مالك الكثيرة في النحو كشرح ابن الناظم وابن عقيل وابن هشام والأشموني والشاطبي وغيرهم قديما وحديثا.

إنّ الدرس النحوي الموروث لا يتجاوز في عمومه الظواهر اللغوية المعروفة إن في المجال الصرفي كدراسة هيئات الكلمات وبنياتها ، أو في المجال النحوي كدراسة أنواع الجمل الاسمية منها والفعلية وعناصر الجمل الأخرى من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات.. إلى ما وراء هذه التراكيب من دلالات

وجماليات ، تقول د. عائشة عبد الرحمن في سياق التشكي من حال هذا النوع من التعليم النحوي: ( وأنت تدرس في النحو الحكم الإعرابي للمبتدأ المؤخر والخبر المقدم ، أما دواعي التقديم والتأخير فمنفصلة تماما عن النحو الذي لا يتدخل في اختصاص علم المعاني ، ويحفظ التلميذ قواعد الصنعة في المعارف والنكرات ، أما سرّ العربية في التعريف والتنكير فلا شأن للصنعة به)(1).

**جماليات النحو : دراسة في المفهوم في سياقه اللغوي والاصطلاحي:**

الجمال ضد القبح ، وأصول الكلمة ترجع غالبا إلى أمور حسية ، قال الراغب : الجمال الحسن الكثير ، وذلك ضربان: أحدهما: جمال يخصّ الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله ، والثاني: ما يتوصل منه إلى غيره ، وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ: « **إنّ الله جميل يحب الجمال** » ، تنبيها أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة ، فيحب من يختصّ لذلك)(2) .

فالجمال إذن حسن وزينة ، وحين نقول : الجمال اللغوي فإننا نخصص المفهوم العام للجمال بالوصف اللغوي لنحصر كلامنا في لون واحد من ألوان الجمال هو ميدان اللغة. فالمراد هنا بحث الجمال في استعمال اللغة ، إنّ الاستعمال الشائع للغة يخلو كثيرا من سمات الجمال اللغوي ، خلافا للإبداع اللغوي فإنّ المتكلم المبدع يتأنّى لكلامه ، لأنه لا يريد مجرد نقل الفكرة فحسب ، بل يريد التأثير في المتلقي ، يريد أن يشاركه ويتعاطف مع تجربته بكل عناصرها ، أن يحرك المشاعر مع العقل ، أن يحرك المتلقي للتعاطف والاندهاش بما يقول ، ولن يتأتى للمبدع اللغوي ذلك بغير أدوات بيانية خاصة تدخل في ساحة الجمال اللغوي ، وهذا الجمال لا ينحصر في صورة ما ، إذ كل مبدع لغوي يمكن أن يُظهِر شخصيته في أسلوب مختلف.

إن للنحو درجات ومستويات كغيره من العلوم ، وهي درجات تبدأ من الجملة البسيطة من الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر ثم الفضلات والتوابع والملحقات ، ثم لا بد من الترقي بذلك إلى دراسة النص وبيان علاقة التركيب بالدلالة وتبيان أسرار عمليات التقديم والتأخير ، والمعاني المضافة من وراء الذكر والحذف والتقديم والتأخير والفصل والوصل..

هذا المفهوم الواسع لمهمة النحو في بيان الجوانب الجمالية للغة أسس له

(1) عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة. دار المعارف، مصر .ط2 . 1991 . ص197.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم . دمشق، ط1، 1412هـ. ص 202.

عبد القاهر وتبعه الزمخشري عمليا في الكشاف ، وقد أدخل بعض مباحث البلاغة «علمي المعاني والبيان» ضمن أدوات التحليل الجمالي القائمة على النحو ، وقد دعا أحد الدارسين المعاصرين إلى ضرورة المزاوجة بين النحو العربي وبعض أقسام البلاغة ، قال: (النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى علم المعاني ، حتى إنه ليحسن أن يكون علم المعاني قمة الدراسة النحوية أو فلسفتها)(1).

ينشأ علم الجمال النحوي أو النحو الجمالي أو الإبداع النحوي ـ كما ذكرنا ـ من خلال المزاوجة بين علمي النحو والبلاغة ، ومصطلح الإبداع النحوي يستعمله بعض الدارسين المعاصرين يقول د. محمد حماسة: (والإبداع النحوي يربط بين النظام الثابت والأداء المتغير فهناك نظام أو نموذج فكري لا يتحقق ولا يظهر للواقع إلا عن طريق الاستعمال ، وكل نموذج يمكن أن يؤدّى به آلاف الآلاف من الجمل التي يختلف مظهرها ويتحد نموذجها ، ومع هذا تظل دائما هناك علاقة تفاعل قوي بين هذا النموذج العميق والسطح المتغير ، وهذا التفاعل هو الذي يقوم بدور فعال في تفسير الجملة وإعطائها معناها الأولي)(2).

والنصوص التي تصلح أن تكون مجالا للدراسة النحوية الجمالية هي تلك النصوص الفنية التي يمتلك أصحابها ناصية اللغة ، فيها صور بلاغية وتراكيب لافتة تحتاج إلى التدبر ، أما رصّ الجمل دون ترابط بينها إلا مجرد جمعها في سياق جمل متعاطفة فلم يكن يعجب عبد القاهر ، خصوصا إذا لم يفقه صاحبها أسرار التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والذكر والحذف والوصل والفصل.. لأنها هي الصور والأشكال التي يدلف منها عالم النحو الجمالي. ولقد عتب الجرجاني على الجاحظ غفلته عن هذا الأمر وهو يستعرض بعض عباراته (جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبينك وبين الصدق نسبا ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينك الإنصاف..). يرى فيه الجرجاني يبين فضله بمعناه أو بمتون ألفاظه ، دون النظم والتأليف ، لأنّ صاحبه عمد إلى معان فرصّها رصا دون تداخل نحوي بين الجمل ، فهذا اللون من البيان لم يرق نظمه لعبد القاهر ، وإنما تقبل منه معناه ومدحه ، ثم قال: (وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم ، فليس درك صواب دركاً فيما نحن فيه

(1) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة ، المغرب. ص18.
(2) محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة. دار الشروق ، بيروت ، ط1 ، 2000. ص28.

حتى يشرُف موضعه..)[1].

فالجاحظ يعتمد التكثيف والإطناب والاسترسال أكثر من تعمّله في الكلمات والتراكيب بصور بلاغية نحوية ، حتى في البيان والتبيين فقد عمد الجاحظ إلى حشد النصوص البليغة دون التدخل في تحليلها نحويا أو بلاغيا ، ربما لأنه كان يرى أنّ حشد النصوص وطبعها في الذهن يقوم مقام القواعد والتحليل ، وهو لون من ألوان التعليم لا يستهان به ، وفي مقابل ذلك يعجب الجرجاني ببيت ابن المعتز:

وإني على إشفاق عيني من العدى     لتجمح مني نظرة ثم أطرق[2]

قال: « فترى أنّ هذه الطلاوة وهذا الظرف ، إنّما هو لأن جعل النظر « يجمح » وليس هو لذلك ، بل لأنّ قال في أول البيت « وإنّي » حتى دخل اللام في قوله « لتجمح » ثم قوله: « مني » ، ثمّ لأن قال « نظرة » ولم يقل « النظر » مثلا ثم في قوله: « ثمّ أطرق » وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف ، وهي اعتراضه بين اسم « إنّ » وخبرها بقوله: « على إشفاق عيني من العدى »[3].

فميدان النحو الجمالي هي النصوص التي تخاطب العقل والروح والشعور والوجدان معا ، أي تخاطب الإنسان بكل حواسه ولا تخاطب العقل وحده. هناك فارق بين الحقيقة العلمية المجردة في العلوم البحتة كالرياضيات والكيمياء والحاسوب مثلا ، وبين الحقيقة مغلفة بأساليبٍ انفعالية تحرك الوجدان مع العقل وترضي حاجة الفن والجمال المتأصّل في كلٍ منّا بنسبة ما. فالرياضيات تختزل الألفاظ والحقائق إلى رموز ومعادلات.. بينما الشعر يذهب ويجيء ويكرر ويحذف ويستعير ويتخيل ، الرياضيات لا تتجاوز الحقيقة إلى العاطفة والوجدان ، والشعر يشبع الوجدان والفؤاد والعقل معا.. وإذا تأملنا أعمال نحاتنا فسنجد أنّ منهم من اكتفى بذكر الوجه الإعرابي ، ومنهم من ذكر الوجه الإعرابي ثم حاول تلمس جماليات التركيب وأسراره متجاوزا الظاهر إلى أعماق التركيب.

أ ـ الاكتفاء بتبيان الوجه الإعرابي: في قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾(آل عمران: 111). قال الفراء: « ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مرفوع على الاستئناف ، ولأنّ رؤوس الآيات بالنون ، فذلك مما يقوي

(1) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز. تحق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي ، القاهرة. ط2 ، 1989 . ص97 ـ 98.
(2) الجرجاني ، دلائل الإعجاز. ص98.
(3) المصدر السابق، ص99.

الرفع »[1].

وقال العكبري: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: مستأنف ، ولا يجوز الجزم عند بعضهم عطفا على جواب الشرط ، لأن جواب الشرط يقع عقيب المشروط ، وثمّ للتراخي ، فلذلك لم تصلح في جواب الشرط ، والمعطوف على الجواب كالجواب ، وهذا خطأ لأنّ الجزم في مثله قد جاء في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد: 38) ، وإنما استؤنف هنا ليدل على أنّ الله لا ينصرهم قاتلوا أو لم يقاتلوا »[2].

وقال ابن يعيش في شرح المفصل في الآيتين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (آل عمران :111) وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد: 38): « فيهما شاهد على العطف بـ « ثمّ » كما عطف بالفاء ، إلا أنه جزم في الأولى (آية سورة محمد) ورفع في الثانية (آية آل عمران). وكلٌّ جائز صحيح ، وحكم الجميع واحد » [3].

**ب . الكشف عن الوجه الجمالي للتراكيب النحوية:** ونستدل لهذا النوع من التحليل النحوي من تفسير الكشاف للزمخشري الذي لا يكتفي بعرض الأوجه النحوية والحالات الإعرابية للآيتين السابقتين ، بل يدلف بنا إلى المعاني التي ترتبط بهذه السياقات النحوية إذ يقول: (فإن قلت : هلا جُزم المعطوف في قوله ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون ، فإن قلت : فأيّ فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا ، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر..)[4]. يتبين لنا أن الزمخشري تقدم خطوة على الآخرين في تعمق أسرار التركيب القرآني.

البحث النحوي الجمالي خبرة متعمقة متناهية بفن القول ، ولا بد له قبل هذا كله من خبرة عميقة بالنحو التقليدي وأساليبه وجدالاته وتاريخه ، إنها خبرة لا

---

(1) ـ أبو زكرياء الفراء، معاني القرآن. تحق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1. 2002 . ج1، ص162.

(2) أبو البقاء العكبري، إملاء ما منّ به الرحمن . دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان. ج1، ص 146.

(3) أبو البقاء بن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تحق: إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1. 2001. ج4، ص 284.

(4) الزمخشري، تفسير الكشاف، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان. ط3 ، 1987. ج1، ص401.

بد منها للانطلاق إلى عالم التحليل الجمالي للنصوص ، وكل الذين انشغلوا بالنحو الجمالي من النحاة والبلاغيين وغيرهم تلقوا النحو أولا علما مدرسيا منظما ذا مستويات متصاعدة كذلك ، فجل علمائنا بدأوا بالنحو ثم انطلقوا إلى عوالم أخرى من ثقافتنا المتنوعة الغنية وعلى رأسها مجال البيان.

**نموذج (القتل أنفى للقتل):**

تواضع العرب قبل الإسلام على تداول «القتل أنفى للقتل» ، وهي عبارة موجزة محكمة نابعة من بيئتهم التي اعتادت القتل ومعناها: قتل القاتل نـأيمنع مزيدا من القتل ، وحين جاء القرآن أبدلهم بها عبارة قرآنية جميلة وهي قوله سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 179) والموازنة بين العبارتين تفتح آفاقا متنوعة من البحث عن القيم الجمالية ، فعبارة العرب (القتل أنفى للقتل) عبارة وجيزة بليغة تتكون من مبتدأ وخبر ومتعلق بالخبر ، ولفظ القتل المبتدأ به قد يكون غير محبب إلى كثير من الناس ، ولو قيل القتل قصاصا لكان أفضل ولكنه ليس أوجز والعرب مغرمون بالإيجاز ، خصوصا في الأمثال والأقوال السائرة والتي يراد لها البقاء والاستمرار.

وعبارة العرب ما تزال بحاجة إلى عناصر بيانية محددة للمعنى ، قد يقال: القتل قصاصا أنفى للقتل ظلما ، ولكنها تطول وتخرج عن الحد المرغوب فيه ، ولكن العربي حين صاغها ترك تلك الزيادة عمدا لملابسات السياق ، فهي لا تقال إلا في مقام معلوم يصير فيه ترك الذكر أفصح من الذكر.

أما الجملة القرآنية فقد عدلت الفهم من خلال تعديل اللغة ، الألفاظ قطرات من الفكر يمكن ترتيبها لإخراج الحكم ، فالجملة القرآنية تصور موقفا حضاريا جديدا لم يعتده العرب قبل الإسلام ، كان القوي قبل الإسلام يستضعف من دونه يقتله ويسلبه ماله وأهله ، كان فعل القتل أمرا يسيرا عند العربي ، دخلت إلى حياته كلمة جديدة جامعة مانعة هي القصاص وشتان ما بين القتل والقصاص ، فالقتل لفظ عام يشمل كل أنواع القتل ، والقصاص قتل مخصوص. فلفظ القصاص يوحي بوجود حكم عادل يقتصّ للمظلوم من الظالم بينما لفظ القتل لا يوحي بذلك ، كان أولياء المقتول يثورون فيأخذون بالواحد نفوسا كثيرة لا جريرة لها ، كما فعل المهلهل في الجاهلية الأولى ببكر بن وائل حين قتل بعضهم أخاه كليبا.

في القصاص إذن عدل وشرع وثواب دنيوي وأخروي ، وهو ما لا يحمله لفظ القتل قبل نزول القرآن ، إن الراغب في القتل حين يضع نصب عينيه صورة القصاص العادل سيفكر مرات ومرات قبل الإقدام على القتل ، التفكير في

القصاص قد يكون سببا لحياة نفسين: القاتل والمقتول ، ورد القصاص معرفا بالألف واللام لأنه حكم شرعي ينبغي تعريفه وإظهاره وإشاعته ، بينما جاء لفظ حياة نكرة ، والنكرة تفيد في بعض السياقات العموم أو التعظيم أو التحقير حسب السياق. يقول الرافعي في هذا السياق: « بدأ الآية بقوله (ولكم) ، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان ، وتلتمس في كمالها نظام النفس ، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة.. قال (في القصاص) ولم يقل في القتل ، فقيّده بهذه الصيغة التي تدلّ على أنّه جزاء ومؤاخذة.. تفيد هذه الكلمة بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ، ولذا لم يأت بالكلمة من اقتصّ مع أنها أكثر استعمالا ، لأنّ الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع.. وجاءت كلمة (حياة) منونة ، لتدلّ على أنّ ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معيّن ، فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة.. »(1).

إن النحو ينبغي له اليوم أن يتفاعل التفاعل الحي مع الحياة والمجتمع وأن لا ينزوي في بطون كتب يردد آخرها ما قال أولها. إنّ الحياة تتجدد وتتنوع كل يوم ، فهل يمكنه أن يعود إلى رسالته التي أداها في الحياة في العصور العربية الذهبية حينما أخذ الفقهاء ـ وعلى رأسهم علماء أصول الفقه ـ من النحو ميراثا كبيرا فأخرجوه إلى عالم الحياة الثرية ، عالم التشريع ، وذلك حين جعلوا اللغة شرطا من شروط تأصيل قواعد أصول الفقه التي بها تستنبط الأحكام من النصوص الشرعية كالقرآن والسنة ، فالنص الشرعي نص لغوي عربي ، والأصولي محتاج إلى أدوات منضبطة في عمله الدقيق ومن ثم كان النحو واحدا من تلك الأدوات(2).

سنمثل للنحو الجمالي بنموذجين اثنين من الدراسات النحوية القديمة ، أحدهما يمثل النموذج النظري الجمالي للدرس النحوي ممثلا في « الكتاب » لسيبويه (ت 180هـ) ، وثانيهما يمثل النموذج التطبيقي الجمالي للنحو وسنمثل له من كتاب « معاني القرآن » للفراء (ت 207 هـ).

**أولا ـ النموذج النظري: نموذج (الكتاب) لسيبويه :** لا يمكن وصف كتاب

(1) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. ج3، ص383.

(2)أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة. تحق: عبد الله دراز. دار الفكر العربي، القاهرة. ط2 . 1975. ج 4 ، ص114.

سيبويه بأنه كتاب نظري بحت في النحو العربي يعرض مسائله وقوانينه في أبواب ومباحث مجردة ـ كما توجهت إلى ذلك المصنفات النحوية التي أنشئت بعده تعرض قواعد اللغة العربية بطرائق متنوعة ومختلفة وتشترك فيما بينها في صرامة التوجه وجفاف الألفاظ والعبارات ـ فـ« الكتاب » يختلف عن كتب النحو الأخرى بجملة من الفروق أهمها أنّ: كتاب سيبويه مشحون بالشواهد المتنوعة والأمثلة العربية الفصيحة من القرآن الكريم وقراءاته المختلفة ، والشعر والأمثال وكذا الأمثلة المأخوذة من درج الكلام من البيئة العربية الفصيحة. وعليه فهو أقرب إلى أن يكون كتابا في النحو التطبيقي تتزاوج فيه النصوص المختلفة والشواهد المتنوعة بالضوابط النحوية المستنبطة من استقراء هذه النصوص. إلا أن الناس لما تواضعوا على اعتباره المنهاج النظري المتكامل للنحو البصري آثرنا ذكره هنا كنموذج نظري اجتمعت فيه مواصفات النحو الجمالي البعيد عن صرامة التقعيد.

**أ ـ كان رائدا في وصف كلام العرب:**

ألف سيبويه كتابه في السبعينيات من القرن الثاني الهجري ، وكان قد مضى على بداية التحريات الميدانية اللغوية أكثر من 80 سنة ، ويمثل « الكتاب » حلقة أخرى من حلقات السماع من أفواه العرب الفصحاء ؛ ذلك أننا لا نجد في هذا الكتاب عبارة (قرأت في..) أو ما يشبهها من العبارات الأخرى الدالة على أخذ المادة اللغوية والمدونة العربية من بطون الكتب والمصنفات ، بل يوظف عبارات أخرى دالة على الأخذ بالمشافهة المباشرة للفصحاء* كهذه العبارات: (وسمعنا من العرب من يقول مِمن يوثق به ..)(1) (سمعناه ممن يرويه عن العرب)(2) (واعلم أنّ ناسا من العرب يعمِلونها فيما بعدها في الخبر..)3 وغيرها من العبارات التي تقتضي الأطمئنان إلى مروياته خاصة في غياب حجج أخرى مناقضة ومقنعة تؤكد خلاف ما أتى به سيبويه من المسموع.. وتجعلنا عباراته الدالة على السماع المباشر من الفصحاء ندين له بالريادة في سلوك طريق ثابت إلى منهج وصفي يستقرئ كلام العرب ، ويصف جمالية التأليف اللغوي لدى العرب الفصحاء بعيدا عن صرامة التقعيد التي انتهجها من جاء بعده من النحاة. وقد بدأ هذا الطريق قبله ثلة من العلماء نذكر منهم ابن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر و« أبا

* لجأ سيبويه وحده إلى 236 شاعرا يمثلون 26 قبيلة من مختلف الأقاليم. الحاج صالح (السماع اللغوي عند العرب) ص336.

(1)سيبويه، الكتاب. ج1، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 182.

(3) المصدر نفسه، ج2. ص 161.

عمرو بن العلاء المؤسس الحقيقي للجغرافية اللغوية إذ لم يُسبق إلى ذلك في تاريخ علوم اللغة عامة»(1). وغيرهم.. ثم استخراج القوانين التي تضبط هذا الكلام العربي الفصيح .

## ب . النحو الجمالي فلسفة لغوية تتعمق بنية اللغة من خلال الفحص والتدبر:

إنّ الدارس لكتاب سيبويه ليكتشف طريقة فذة في معالجة القضايا النحوية تختلف عن طرائق علماء النحو الذي جاؤوا بعده وألفوا هم كذلك كتبا في الظواهر النحوية. ويكمن الفارق الجوهري بينه وبينهم أن سيبويه يتناول كل باب من أبواب النحو بطريقة تشبه طريقة المهندس الذي يوظف خبراته وحنكته وذوقه في تصميم بناء بشكل هندسي دقيق وجميل ، وكل جزء فيه إنما جاء ليؤدي حاجة لصاحب البناء. كذلك حال البِنَاء اللغوي العربي المسموع من كلام العربِ الفصحاء ، فهو في فكر سيبويه يمثل نسيجا لغويا محكما ينطوي على حِكَم دلالية دقيقة عَلِمها من علمها ، ومن لم يعلمها فلعله قصور فكري في شخص صاحبه يستدعي منه مزيدا من التأمل والدراسة . ولنتأمل هذه النماذج التي تكشف طريقة سيبويه الفذة في تعمق بنية اللغة وفحصها وتدبرها:

يقول في باب (ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي):

ومن ذلك قولهم: مرحبا ، وأهلا ، وإن تأتني فأهلَ الليل والنهار. وزعم الخليل رحمه الله حين مثله ، إنّه بمنزلة رجل رأيته قد سدّد سهمه فقلت: القرطاس ، أي أصبت القرطاس ، أي أنت عندي ممن سيصيبه. وإن أثبت سهمه قلت: القرطاس ، أي قد استحقّ وقوعه بالقرطاس. فإنّما رأيت رجلا قاصدا إلى مكان أو طالبا أمرا فقلت: مرحبا وأهلا ، أي أدركت ذلك وأُصبت ، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه ، وكأنه صار بدلا من رَحُبَت بلادُك وأَهِلَتْ ، كما كان «الحذرَ» بدلا من «احذرْ» . ويقول الرادُّ: وبك وأهلا وسهلا ، وبك أهلا. فإذا قال: وبك وأهلا ، فكأنه قد لَفَظ بمرحبا بك وأهلا. وإذا قال: وبك أهلا فهو يقول: ولك الأهلُ إذا كان عندك الرُّحْبُ والسَّعة. فإذا رددتَ فإنّما تقول: أنت عندي ممّن يقال له هذا لو جئتني. وإنّما جئت بِبك لتبيِّن مَن تعني بعدما قلتَ: مرحبا ، كما قلت : لك ، بعد سَقْيا.. »(2).

(1) عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب. موفم للنشر، الجزائر. 2007. ص 335.
(2) سيبويه، الكتاب. ج1، ص295.

ويسلك سيبويه هذه الطريقة ذاتها في معالجة القضايا النحوية من أول الكتاب إلى آخره، يربط بين السياق اللغوي المسموع من العرب الفصحاء وبين التفسير العقلي والمنطقي والأدبي والبلاغي لأسرار الرفع أو النصب أو الخفض، والذكر والحذف والإضمار والإظهار والتقديم والتأخير.. ويعرج في ثنايا التحليل اللغوي بهذه الطريقة الجمالية على عرض النماذج اللغوية على أشباهها ونظائرها. ثم إنّه لا يضع القارئ لكتابه والمطلع على منهجه في التحليل اللغوي في زاوية ضيقة من الاحتمالات، بل ولا يحجر على السامع صيغا بعينها، بل يفتح أمامه آفاقا أخرى من الحالات المسموعة والجائزة كذلك. وهذه الطريقة ذاتها كان قد سلكها شيخه الخليل في تحليل كلام العرب وهو ما يتضح من آرائه كما دونها سيبويه في الكتاب كما يبيّنه العنصر الموالي:

**ج. النحو الجمالي إنما هو البراعة في عرض الاحتمالات النحوية:**

إنّ النحوي والعالم اللغوي لا يحجر على المتكلم صيغا بعينها لا يجوز له الخروج عنها، بل يفتح أمامه عددا من الاحتمالات الجائزة سمعت عن العرب الفصحاء، وهي طريقة تميّز بها سيبويه في «الكتاب» كما تبيّنه النماذج التالية:

« وتقول: إنّ زيدا لفيها قائما، وإن شئت ألغيت «لفيها»، كأنك قلت: إنّ زيدا لقائم فيها »(1).

« وزعم الخليل أنّ هذا يشبه قول من قال، وهو الفرزدق:

فلو كنت ضبِّيًّا عرفت قرابتي ... ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المَشافِرِ

والنصب أكثر في كلام العرب.. »(2).

وقال الشاعر:

فما كنتُ ضَفَّـاطا ولكنَّ طالبا ... أناخَ قليلا فوق ظهرِ سبيلِ

أي: ولكنّ طالبا منيخا أنا. والنصب أجود؛ لأنه لو أراد إضمارا لخفف.. »(3).

وإذا منع العالم اللغوي أو النحوي احتمالات نحوية ولغوية أخرى فهو يقدم بين يدي القارئ جملة من التبريرات التي يحاول بها إقناع السامع برأيه ومذهبه بطريقة توحي في أكثر الحالات بعدم الإلزامية، أو ينبهك إلى أنّ هذا الوجه فرضه السماع من العرب الذين لم يقولوا بغيره مما يخالفه، ولا يتأتى

(1) نفسه، ج2. ص 133.
(2) نفسه، ص 136.
(3) نفسه، ص136.

للعالم النحوي ذلك إلا إذا كان مُلِمّاً بكلام العرب، ضالعا في لغاتها واختلافاتها، يقول سيبويه: « وذلك قولك: مررتُ بكلٍّ قائماً، ومررتُ ببعضٍ قائما وببعضٍ جالسا. وإنّما خروجهما من أن يكونا وصفين أو موصوفين، لأنّهُ لا يحسن لكَ أن تقول: مررتُ بكلِّ الصالحين ولا ببعض الصالحين. قبح الوصف حين حذفوا ما أضافوا إليه، لأنه مخالف لما يضاف، شاذ منه فلم يجر في الوصف مجراه.. »(1).

ويقول في موضع آخر: « واعلم أنهم لم يستعملوا عسى فعلُك، استغنوا بأن تفعل عن ذلك كما استغنى أكثر العرب بعسى عن أن يقولوا: عسيا وعسوا، وبـ « لو أنه ذاهب» عن لو ذهابه. ومع هذا أنّهم لم يستعملوا المصدر في هذا الباب، كما لم يستعملوا الاسم الذي في موضعه يفعل في عسى وكاد، فتُرك هذا لأنّ من كلامهم الاستغناء بالشيء عن الشيء»(2). ويقول: « واعلم أنّ فَعَالَ جائزة من كلّ ما كان على بناء فَعَل أو فَعُل أو فَعِل، ولا يجوز من أَفْعَلْتُ، لأنّا لم نسمعه من بنات الأربعة، إلا أن تسمع شيئا فتجيزه فيما سمعت ولا تجاوزه.. »(3).

**د ـ أوجه الإعراب تنطوي على أوجه دلالية كذلك:** يهتم سيبويه وهو يعرض أبواب النحو ومسائله بالجانب الدلالي الذي يرتبط بالسياقات المختلفة، وهي طريقة تجعل من الدرس النحوي حيا طريا يؤدي رسالته مرنة في تصريف المعاني المختلفة التي يتواضع عليها الأفراد فيما بينهم.. وسنعرض فيما يلي نماذج مما أورده سيبويه من هذه المزاوجة بين النحو والوظائف الدلالية المرتبطة بها.

1ـ في باب (الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول) يشير سيبويه إلى دور التقديم والتأخير في الإيحاء بدلالة معينة يقول: « وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدا. فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب، وشَغَلْتَ ضَرَب به كما شَغلتَ به ذَهَب، وانتصب زيد لأنّه مفعول..« إلى أن يقول: « .. فمِن ثَمَّ كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مُقدَّماً، وهو عربي جيّد كثير، كأنّهم إنّما يُقدِّمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يُهمَّانهم ويَعْنيانهم.. »(4).

2 ـ وفي باب المشتقات يربطُ سيبويه بين الصيغ والتراكيب وبين المعاني، يقول: « وذلك قولك: هذا ضارب زيدا غدا، فمعناه وعمله مثل « هذا يضرب زيدا

(1) سيبويه، الكتاب. ج 2، ص 114 ـ 115.
(2) نفسه، ج3، ص 158.
(3) نفسه، ص 280.
(4) نفسه، ج1. ص 34.

غدا». فإذا حدثت عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك، وتقول: «هذا ضاربٌ عبدَ الله الساعة«. فمعناه وعمله مثل «هذا يضرب زيدا الساعة« .. فهذا جرى مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى منوَّناً»[1].

3 ـ ويقول في باب (ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي): «وذلك قولك: أخذتُه بدرهم فصاعِداً، وأخذتُه بدرهم فزائداً، حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه، ولأنهم أمنوا أن يكون على الباء، لو قلت: أخذته بصاعد كان قبيحا... لأنك لا تريد أن تخبر أن الدرهم مع صاعد ثمن لشيء، كقولك: بدرهم وزيادة، ولكنك أخبرت بأدنى الثمن فجعلته أولا، ثُمّ قَرَوْتَ شيئا بعد شيء، فالواو لم تُرِد فيها هذا المعنى..»[2].

## النموذج التطبيقي للنحو الجمالي:
## «معاني القرآن» لأبي زكريا الفراء

نعني بالنموذج التطبيقي للنحو الجمالي تلك الدراسات التي اتخذت مدونة من المدونات العربية الفصيحة مجالا للدراسة والتحليل النحوي، وقد وصلتنا هذه الدراسات القديمة يتناول بعضها النص القرآني بالتحليل النحوي واللغوي ككتب معاني القرآن، وبعضها الآخر يتخذ من الشعر ميدانا للدراسة والتحليل كالذي كتبه ابن جني في تحليل ديوان صديقه أبي الطيب المتنبي الشاعر..

عُرفت مدرسة الكوفة بأنها مدرسة وصفية، وكانت الأعمال الأولى لدى أئمة هذه المدرسة يختلط فيها الوصف بالتفسير، وعليه لم تصلنا كتب نحوية متخصصة تنسب إلى رجال الكوفة الأوائل، وإنما وصلتنا كتب تتناول النحو من خلال الاتصال بالنصوص، وقد كان هذا الاتجاه حقيقا أن يطبع العمل في أغلبه بطابع الوصف[3].

يعدّ الفراء أعلم الكوفيين ـ بعد الكسائي ـ بالنحو[4]، وكتابه «معاني القرآن» هو أكبر مؤلفاته وأجمعها لآرائه التي تعكس في نفس الوقت المذهب الكوفي في النحو، ولا يعتبر الكتاب كتابَ نحو يتناول أبواب النحو ومسائله مبوبة ومحددة المعالم، بل هو دراسة لغوية للقرآن الكريم يتناول ما يشكل منه

(1) سيبويه، الكتاب. ج1. ص164.
(2) نفسه، ص 290 ـ 291.
(3) عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث ـ بحث في المنهج. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. 1986. ص 58.
(4) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، صيدا: بيروت. ط1، 2002. ص 105.

لغة وإعرابا واحتجاجا واستكناهاً لأسلوبه ومعانيه.

يمتلك الفـراء ناصية البيـان وسـعة الروايـة والعمـق في اكتنـاه روح العربيـة والغوص في أسرارها وهو ما يظهر في كتابه (معـاني القـرآن) الـذي ألفـه لخدمـة النص القرآني وتحليله وبيان وجوه إعرابه وما يجـوز فيـه ويحتـاج إليـه مـن ألـوان التخريج والتقدير(1) ، وهو ينطلق فيه من قاعدة ذكرها في قولـه: «والقـراء لا تقـرأ بكل ما يجوز في العربية ، فلا يقبحنّ عندك تشنيع مشنّع مما لم يقـرأه القـراء ممـا يجوز»(2). ومن ثم يغمر (المعاني) من أقواله التي تبيح النطق في كـلام النـاس بمـا لم يرد في الآية التي يعالجها كما يسـوغ النطـق كمـا جـاءت ، فهـو يقـول مـثلا: «وقوله: (وهدى وموعظة للمتقين) متبـع للمصـدق في نصبه ، ولـو رفعتـه علـى أن تتبعهما قوله: ( فيه هدى ونور) كان صوابا»(3) ، فالرفع يجوز من حيـث العربيـة لا من حيث القـراءة. ولعلـه بـذلك يريـد أن يبـيّن أنّ القـرآن جـاء علـى خـير وجـوه العربية ، ولكنه لم يشملها كلها مما يحتاج إلى البيان والتحديد ، حتى لا يظنّ ظـانّ أنّ ما جاء به القرآن لا يجوز غيره ، أو أنّ التوجيـه الواحـد لا يمكـن مخالفتـه بمـا تسمح به مسالك العرب في كلامها.

عالج الفراء في كتابـه آيـات القـرآن الـتي يـرى فيهـا مشـكلة لغويـة معينـة وتجاوز الآيات التي لا إشكال فيها ، فهو إذن لا يستقصي آيات القرآن وإنما يقـف على ما أشـكل منهـا ، وقـد التـزم في تناولـه الآيـات بترتيبهـا في السـورة ، والتـزم بترتيب السور في القرآن ، ويختلف الجانب الذي يعالج منه الآية بـاختلاف مـا يـراه من إشكالها ، فمرة يكون كلامه على الرسم ومرة على لغة وردت في لفظة ، وتـارة يوجه قراءة معينة ، أو شاهدا على استعمال خاص ، وأخرى ينـاقش مسـألة نحويـة أو صرفية أو يناقش مظهرا من مظاهر الإعجاز والفواصل..

وهـو إلى جانـب احتكامـه إلى النقـل فيمـا يوضـح مـن معـان ويقـرر مـن حقائق ، كان كثيرا ما ينطلق من ذوقـه الخـاص وفهمـه المتميـز ، إذ آمـن أنّ اللغـة تتطور تطورا لا يخضع لمنطق الدرس أو قواعده ، فعُني بالإشارة إلى تعدّد أسـاليب العرب في التعبير وبعضها بعيد عن المألوف فـيظن فيـه الخطـأ ، واسـتنادا إلى هـذا الذوق اللغوي كان كثيرا ما يكـرر عبـارة (ولا أشـتهي ذلـك) ، كمـا تنـاول الأوجـه البلاغية للآيات ، ويكفي أن نشـير إلى أهميـة الكتـاب وقيمتـه العلميـة أنـه اجتمـع

(1) إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيـع والإعـلان، ليبيـا. ط3، 1990. ج1. ص227.
(2) أبو زكريا الفراء، معاني القرآن. ج1، ص 172.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص213.

لإملائه خلق كثير(1) ، ولما فرغ من إملائه خزنه الوراقون عن الناس احتكارا ليتكسّبوا به مقابل نسخ خمسة أوراق بدرهم ، ولما وصلته شكوى الناس قرر أن يعيد إملاءه على الناس ولكن بشرح أتم وقول أكثر بسطا..

والفراء في كتابه هذا جعل النحو في خدمة النص القرآني ، يوظفه في كشف الأوجه الجمالية لألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ، ومعالجته بطريقته الفذة في كشف الدلالات المختلفة والمعاني الكامنة وراء هذه الألفاظ وهذه التراكيب ، وهي مزاوجة رائدة بين النحو العربي وبين النصوص والتي أنشئ أساسا خدمة لها وأداة لتعقب معاني القرآن ودلالاته.

وكتاب « معاني القرآن » لا يقتصر ـ كما أشرت إلى ذلك من قبل ـ على المعالجة النحوية للنص القرآني ، بل يخوض في العلوم المختلفة للغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وقراءات وغيرها.. وهو بهذا السلوك يؤسس لنظرية التكامل بين العلوم اللغوية المختلفة التي تتضافر جميعا للكشف عن الدلالات والمعاني التي تنطوي عليها الألفاظ والتراكيب المشكِّلة لنص من النصوص العربية الفصيحة. ويجدر بنا أن نذكر هنا بعض النماذج المقتطفة من كتابه « معاني القرآن » تبيّن لنا الطرائق التي اتبعها الفراء في توظيف الجوانب اللغوية المختلفة في خدمة النص القرآني ليصير الدرس اللغوي (النحوي) شكلا جماليا متكاملا بعيدا عن الجفاف والإيغال في التجريد والنظرة الجزئية للقضايا:

**أولا ـ معالجة الحالات الدلالية المختلفة:** يبيّن الفراء في المثال التالي الفروق الدلالية الدقيقة بين الاستعمال الذي ورد عليه الأسلوب القرآني وبين أسلوب آخر يتوهمه الناظر ويظنّه يؤدي نفس الدلالة ونفس المعنى ليصل إلى أنّ الاستعمال القرآني هو الأوفى في الإحاطة بالمعنى ، يقول بشأن الآية التالية من سورة البقرة: [ذلك الكتاب ..] . يقول: (يصلح فيه [ذلك] من جهتين ، وتصلح فيه (هذا) من جهة ، فأما أحد الوجهين من [ذلك] فعلى معنى: هذه الحروف يا أحمد ، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك. والآخر أن يكون (ذلك) على معنى يصلح فيه (هذا)؛ لأنّ قوله (هذا) و(ذلك) يصلحان في كل كلام إذا ذكر ثم أتبعه بأحدهما بالإخبار عنه ... ولو كان شيئا قائما يُرى لم يجز مكان (ذلك) (هذا) ، ولا مكان (هذا) (ذلك).. »(2).

(1) « قال يحي بن زياد: فأردنا أن نعدّ الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم يضبط، قال: فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا، فلم يزل يملّه حتى أتمّه« (إنباه الرواة على أنباه النحاة) للقفطي ج1، ص 16.
(2) الفراء، معاني القرآن. ج1. ص20.

**ثانيا. استعراض الأوجه الإعرابية المختلفة:** يستعرض الفراء في نفس السياق المواقع الإعرابية المحتملة والممكنة للكلمات الواردة في الآية نفسها من سورة البقرة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. يقول: «وأما قوله تعالى: [هدى للمتقين..] فإنّه رفع من وجهين ونصب من وجهين؛ إذا أردت بـ (الكتاب) أن يكون نعتا لـ (ذلك) كان الهدى في موضع رفع لأنه خبر لـ (ذلك)؛ كأنّك قلت: ذلك هدى لا شك فيه. وإن جعلت [لا ريب فيه] خبره رفعت أيضا [هدى] تجعله تابعا لموضع: [لا ريب فيه]... وإن شئت رفعته على الاستئناف لتمام ما قبله..

فأما النصب في أحد الوجهين فأن تجعل (الكتاب) خبرا لـ ( ذلك) فتنصب (هدى) على القطع؛ لأنّ (هدى) نكرة اتصلت بمعرفة قد تمّ خبرها فنصبتها .. وإن شئت نصبت (هدى) على القطع من الهاء التي في ( فيه )؛ كأنّك قلت: لا شك فيه هاديا.. »(1).

**ثالثا. التحليل البلاغي :** كما يبحث الفراء في معانيه جماليات بناء النص القرآني الذي ينطوي نسيجه الإفرادي والتركيبي على لفتات بلاغية دقيقة جدا ، والنموذج التالي يبيّن طريقة الفراء في كشف هذه الجوانب البلاغية يقول: « وقوله: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ربما قال القائل: كيف تربح التجارة ، وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك ، فحسن القول بذلك؛ لأنّ الربح والخسران إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه. ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم. ومثله في كتاب الله: ﴿ فإذا عزم الأمر﴾ إنّما العزيمة للرجال.. »(2).

وبهذه الطريقة وبهذا المنهج يمضي الفراء في تحليل معاني القرآن الكريم مقدما نموذجا عمليا وعملا فذّا في التأسيس للنحو الجمالي الذي يجعل من الدرس النحوي وسيلة لخدمة النص والتصرف في المعاني والدلالات التي ينطوي عليها النص ، ولا يكون النحو غرضا في حدّ ذاته..

إنني أدعو في ختام هذه الدراسة إلى أهمية بعث النحو الجمالي في مؤسساتنا التعليمية والتربوية ، وتشجيع المتعلمين وحث المتخصصين على تجديد الاتصال بالأعمال النحوية واللغوية الرائدة في تقديم الدرس النحوي في حلة من الإبداع اللغوي الذي يتولى تحليل جماليات العناصر المؤلفة للتراكيب والجمل ، وبيان موضع كل لفظ وعلاقته بغيره ، وبيان التفاوت الدلالي والجمالي

(1) المصدر نفسه، ص 21.
(2) المصدر نفسه، ص23.

بين تركيب وآخر ، بالطريقة التي بدأها سيبويه في الكتاب ، وسار على ضوئها ثلة من النحاة واللغويين عبر القرون من خلال النماذج النظرية أو التطبيقية من المؤلفات التي صنفوها وكانت بحق عنوانا بارزا على النموذج المنشود للدرس النحوي الناجح.

### قائمة المصادر والمراجع


1 ـ إبراهيم عبد الله رفيدة ، النحو وكتب التفسير. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا. ط3. 1990.

2 ـ أبو إسحاق الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة. تحق: عبد الله دراز. دار الفكر العربي ، القاهرة. ط2. 1975.

3 ـ أبو البقاء العكبري ، إملاء ما منّ به الرحمن. دار الكتب العلمية. بيروت.

4 ـ أبو البقاء بن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري. تحق: إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية ، بيروت. ط1. 2001.

5 ـ أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية ، صيدا: بيروت. ط1. 2002.

6 ـ أبو زكرياء الفراء ، معاني القرآن. تحق: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية ، بيروت. ط1. 2002.

7 ـ تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها. دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب.

8 ـ جمال الدين أبو الحسن القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي ، القاهرة. ط1. 1986.

9 ـ الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن. تحق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم ، دمشق. ط1. 1412هـ

10 ـ الزمخشري ، تفسير الكشاف. دار الكتاب العربي ، بيروت. ط3. 1987.

11 ـ سيبويه ، الكتاب. تحق: عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان. ط3. 1988.

12 ـ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، لغتنا والحياة. دار المعارف ، مصر. ط2. 1991.

13 ـ عبد الرحمن الحاج صالح ، السماع اللغوي العلمي عند العرب. موفم للنشر ، الجزائر. 2007.

14 ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز. تحق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي ، القاهرة. ط2. 1989

15 ـ عبده الراجحي ، النحو العربي والدرس الحديث ـ بحث في المنهج ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت. 1986.

16 ـ محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة. دار الشروق ، بيروت. ط1. 2000.

17 ـ مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم. المكتبة العصرية ، صيدا: بيروت. الثقافي العربي ، المغرب ، ط3 ، 2002